مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

أ.د/خالد بن عبدالعزيز السيف

أنسنة مناهج دراسة الدين في الفكر الغربي دراسة نقدية إسلامية

أ.د. خالد بن عبدالعزيز السيف

الأستاذ بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة القصيم

ملخص البحث. تهتم الدراسات الغربية بدراسة الدين وقضاياه ، ولكن هذه الدراسات المتنوعة تنطلق من منهجية متأثرة بالتكوين الفكري الغربي ذو المنزع المادي ، لذا تتداخل عدة علوم كعلم الاجتماع وعلم النفس كأدوات منهجية في دراسة الدين في الفكر الغربي، وهذا البحث يحاول الكشف عن المنطلقات الفكرية الأساسية في دراسة الدين في الفكر الغربي وكيف أنه يتجه إلى دراسة الدين كما يدرس العلوم الإنسانية بشكل عام، دون اعتبار للجانب الإلهي في الدين، كما يناقش البحث صحة هذه المنهجية وثباتها وما هي أوجه الخلل في هذه المنهجية الغربية في دراسة الدين وقضاياه .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

لم يكن من السهل دراسة قضية "الدين" بشكل مبسَّط، حيث إن هذه القضية بالذات تنازعتها حقول معرفية متعددة، فليس الحقل الإسلامي هو الحقل الوحيد الذي ممكن دراسة هذه القضية من خلاله، وإذا أردنا دراسة هذه الظاهرة سيسيولوجياً فإن الحقل الإسلامي قد يكون هو الأضعف، وذلك لتعدد المنطلقات المنهجية الدارسة لقضية الدين هذا جانب؛ وجانب آخر أن الكلام في الدين لم يقتصر على رجال الدين فحسب كما كان سابقاً والذي يُختصر دورهم في إعطاء حكم على المظاهر الفردية والاجتماعية بأنها قريبة من الدين أو بعيدة عنه، بناء على مدى قربها من النصوص الدينية أو بعدها عنها، أما في العصور المتأخرة فإن الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء النفس والأنثروبولوجيين وغيرهم قد اتحلّوا جزءً كبيراً من مباحث الدين، بل قد تكون أغلب مباحث الدين في الدراسات المعاصرة ليست من نصيب علماء الشريعة، حيث إن الحديث عن الدين في الحقول السابقة يعني الحديث عن الدين بصفته ديناً أيّاً كان هذا الدين، دون البحث في صحة هذا الدين من عدمه، وإنما المهم هو كيفية علاقة الدين مع الأفراد والجماعات ومدى تأثير الدين في المجتمع والفرد. فعالم الاجتماع على سبيل المثال كعالم الفيزياء فهو غير مَعنِيٍّ بمن خلق المادة، وإنما هو معنِيٌّ أكثر بصفات المادة وقوانينها. وإذا كان الدراسات الأنثروبولوجية ساوت في دراستها للأديان دون التفرقة بين دين وآخر؛ فإن المقصود بالدين في هذه الدراسة إنما هو الدين الإسلامي بالذات، وينعكس ذلك على قضاياه التي هو التمثُّل لأوامر الدين وتوجيهاته والالتزام بنظرته للكون والإنسان والحياة.

مشكلة البحث:

يحاول البحث أن يجيب على السؤال التالي: ماهي الحقول المعرفية التي يتم تداول موضوع الدين فيها في الفكر الغربي؟ ، وما هو المنهج الذي يتم تناول الدين من خلاله؟ ، وما هي الصعوبات المنهجية التي تكتنف تناول الدين من خلال الأدوات المنهجية الغربية؟، وما تأثير غياب مفهوم الألوهية في ذلك ؟

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

أهداف البحث:

إن من المهم بيانه في هذه الدراسة ليس الحكم الشرعي على قضايا الدين ومدى قربها أو بعدها من النصوص الشرعية، فإن هذا ليس هو هدف هذه الدراسة، وإنما هدف هذه الدراسة هو الكشف عن الطريقة التي يشتغل عليها الخطاب الغربي في دراسته للدين والكشف عن نظامه المعرفي.

منهجية البحث :

إن تنوع الحقول المعرفية في دراسة الدين ومدى تأثيرها على التصور العام لقضاياه يفرض على الباحث النظر في أي أدوات نظرية وتقنيات منهجية ومفاهيمية يمكن دراسة قضايا الدين من خلالها، فإنه أصبح من المؤكد الآن في الدراسات المعاصرة أنه لا توجد نظرية مهيمنة تقنع الباحث بصدق أدواتها وبالركون إلى فرضياتها والاطمئنان إلى نتائجها، بل غدا التكامل المنهجي هو السمة المميزة للجمع بين هذا الفائض من النظريات المتعددة والرؤى المتضاربة، ولهذا كان من الأخطاء المنهجية في السيسيولوجيا الدينية الركون إلى الأداة الواحدة لتفسير ودراسة قضايا الدين، سواء كانت هذه الأداة ذات منزع اقتصادي أو سياسي أو نفسي أو غيرها.

وإذا كان عدم التكامل المنهجي في الدراسات المعاصرة يعد من الأخطاء المنهجية في دراسة الدين؛ فإن إقصاء الأدوات ذات المرجعيات الإسلامية يعتبر من أكبر الأخطاء التي تقترفها الدراسات التي اهتمت بقضايا الدين أيضاً، إن لم يكن أكبرها، وقد يكون هذا التغافل هو السمة البارزة في كثير من الدراسات التي تناولت قضايا الدين في شتى البلاد العربية، وربما كان اعتمادها على زاوية علم الاجتماع أكثر حضوراً من أي زاوية أخرى، حيث إن هذا العلم لا يمكن لوحده أن يجيب على كل الأسئلة ولا أن يحلَّ كل الإشكالات، فإنه لدراسة أي قضية لا بد من البداية من عناصرها الأولى ومقولاتها التأسيسية قبل البداية في تمظهراتها وآثارها، حيث دراسة قضايا الدين في المجتمعات الإسلامية التي يفترض أن تعبر عنها الهوية الإسلامية يجب أن تنطلق من البداية من مقولات الدين نفسه قبل مقولات علم الاجتماع أو الفلسفة، ومن منطلقات النصوص الدينية قبل النظريات الاجتماعية، وهذا الذي لم يحدث في عموم دراسات قضايا الدين كما سيأتي تناوله في البحث بإذن الله .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

الدراسات السابقة :

هناك عدد من الدراسات التي تحمل عنوان (فلسفة الدين) سواء من كتّاب عرب أو أجانب ، وهذه تتناول الدين بنفس المنظار الغربي أو قريباً منه، وهذه كثيرة جداً لا داعي لتعدادها، وقد رجعت إلى جملة منها كما في قائمة المراجع.

وهناك بعض الدراسات التي تتحدث عن نقد الدين كرسالة "ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث" للدكتور سلطان العميري ، وهي رسالة موسوعية ومتميزة في بابها ، وهي تهتم بإيراد المسائل والرد عليها ولم يكن من اهتماماتها ما يتعلق بأنسنة المناهج كما هو موجود في هذا البحث .

وهناك رسالة أخري بعنوان "الأسس المنهجية لنقد الأديان دراسة في سؤال المنهج ونظرية البحث" للدكتور مُحَمَّد بن بسيسالسفياني ، وهي رسالة متميزة في بابها ، ولكنها معنية بمنهجية نقد الأديان من ناحية الأسس المعرفية والنقد الداخلي والخارجي للدين وما إلى ذلك ، ولم يكن من اهتمامها قضية أنسنة المناهج كما هو موجود في هذا البحث.

وقد قمت بتقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث كالآتي:

المبحث الأول: مفهوم الدين

أولاً : الدلالة اللغوية للدين

إذا اقتربنا لمفهوم الدين على وجه التفصيل؛ فإن أول ما يمكن أن نحدده به هو التحديد اللغوي، حيث جاءت كلمة دين في سياقات متعددة، وعند فرز هذه السياقات المتعددة نجد أن مفردة "دِيْن" في المعاجم اللغوية تتضمن فعلاً قد يتعدى بنفسه، أو يتعدى باللام، أو يتعدى بالباء، فإذا تعدى الفعل بنفسه كقولهم "دَانَهم دِيناً" فيكون المعنى "ملكه أو غلبه أو قهره أو حاسبه وجازاه" قال ابن منظور: ودِنْتُه أَدِينُه دَيْناً: سُسْته. ودِنْتُه: مَلَكْتُه. ودُيِّنْته أَي مُلِّكته. ودَيَّنْتُه القوم وَلَّيْتُهُ سياستهم، قال الحطيئة:

لَقَدْ دُيِّنْتِ أَمْرَ بَنيكِ، حَتَّى تَرَكْتِهِم أَدقَّ مِنَ الطَّحين

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

أي ملكت[١]، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الصافات:٥٣] وكما جاء في الحديث: "كما تدين تدان"[٢] ومنه قوله ﷺ :"الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت"[٣] أي حاسبها وقهرها، ومنه: الديَّان صفة الله عز وجل أي يقتص ويجزي[٤].

أما إذا كان الفعل متعدياً باللام (دَانَ له) فإنه يكون بمعنى الطاعة والخضوع والعبادة، قال ابن منظور: والدِّين لله من هذا، إنما هو طاعته والتعبد له[٥]، ومنه قوله ﷺ لعمه أبي طالب:"أريد من قريش كلمة تدين لهم بها العرب"[٦] أي تطيعهم وتخضع لهم.

أما إذا كان الفعل متعدياً بالباء (دَانَ به) فإنه يكون بمعنى الاعتقاد أو العادة والطريقة، قال ابن منظور : دَانَ بكذا دِيانة، وتَدَيَّنَ به فهو دَيِّنٌ ومُتَدَيِّنٌ [٧] ومنه قول عائشة رضي الله عنها: "كانت قريش ومن دَانَ بدِينِهم"[٨] أي اتبعهم في دينهم ووافقهم عليه واتخذ دينهم له ديناً وعبادة.

وهذه المعاني اللغوية كلها تدور حول القضاء والحكم والإلزام من طرف، والخضوع والانقياد والتعظيم من طرف آخر.

---

(١) انظر لسان العرب ١٣/١٧٠ مادة (دَيَنَ)
(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات ١/١٩٧، والحديث ضعيف . انظر المقاصد الحسنة، السخاوي ص٥١٩ .
(٣) أخرجه الترمذي في أبواب صفة القيامة والرقاق والورع ح(٢٤٥٩) .
(٤) انظر لسان العرب ١٣/١٦٩ مادة (دَيَنَ)
(٥) انظر لسان العرب ١٣/١٧٠ .
(٦) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن ح(٣٢٣٢) .
(٧) انظر لسان العرب ١٣/١٦٩ .
(٨) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن،باب: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناسح(٤٥٢٠) .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

ثانياً: الدلالة الاصطلاحية للدين:

عندما نأتي إلى الوقوف على مفهوم الدين –أي دين– فإن الأمر سيكون بغاية السهولة لو انطلقنا من الدين نفسه، لكن الأمر سيكون بغاية الصعوبة إذا انطلقنا من ميادين حقول أخرى كميدان العلوم الاجتماعية أو ميدان علم النفس أو الفلسفة، حيث سيكون في غاية الإشكال والتعقيد، حيث إن هناك مفهوماً للدين في علم الاجتماع، ومفهوماً للدين في حقول علم النفس ومثل ذلك في ميدان الأنثروبولوجيا وغيرها، فمفهوم الدين عند الفيلسوف يختلف عن مفهومه عند عالم النفس أو عالم الاجتماع وهكذا، كل هذه الحقول المعرفية وغيرها تنطلق من زوايا خاصة بناء على رؤيتها الأبستمولوجية، وهذا التعدد والاختلاف في المنطلقات يزيد من صعوبة إعطاء مفهوم للدين بشكل واضح ودوره في حياة الفرد أو الجماعة، ولكن يجمع هذا الشتات هو المقدَّس، حيث إن وجود المقدس هو أساس الدين، بل قد لا يوجد دين دون فكرة التقديس، حتى الديانات القائمة على المبادئ الأخلاقية كالبوذية مثلاً تحولت فيها شخصية بوذا من حكيم أخلاقي إلى إله مقدس له رؤيته المطلقة إلى الكون والإنسان، فلا يمكن نزع جانب التقديس عن أي دين، وإلا فقدَ ما يكون به ديناً، فقد نتحدث عن مبادئ أخلاقية أو عادات قبلية أو معتقدات شعبية، لكن لا يمكن أن يمثل ذلك ديناً إلا إذا استحضرنا مفهوم التقديس.

إن هذا الاختلاف في مفهوم الدين نظراً لتعدد الحقول التي يُتداول فيها مفهوم الدين، وبناء على منطلقات كل حقل؛ لكن هناك خيطاً ناظماً لهذا الاختلاف تجتمع فيه كل المنطلقات المختلفة في تحديد مفهوم الدين، وهي أن كل الأديان بدون استثناء تؤمن بمبدأ الألوهية سواء كان إلهاً واحد أو أكثر، كما تُميّز الأديان بين عالم الروح وعالم المادة، هذا إضافة إلى وجود طقوس وشعائر وأخلاق وقيَم، كما توجد أيضاً شريعة أو قانون ينظِّم حياة الناس، بأسلوب بسيط يخاطب النخبة كما يخاطب الجمهور، فالدين من هذه الزاوية نسق من المكونات المتفاعلة فيما بينها يحكمها نظام داخلي له منطقه الخاص في محافظته على توازنه الداخلي، ويشكِّل وعي الفرد فيه بناء على أن الدين يحوي جانب التقديس ويقدم المعرفة المطلقة للكون وللحياة والإنسان، وربما يعيد صياغة الإنسان ونمط تفكيره وسلوكه، وبحسب الفيلسوف الإنجليزي ألفرد نورث هوايتهد[٩] فإن الدين:

---

(٩)نورث هوايتهد (١٨٦١–١٩٤٧) عالم رياضيات وفيلسوف انجليزي، عمل هوايتهد على وضع القواعد المنطقية للرياضيات، ودرّس في جامعة لندن، وعمل أستاذاً لكرسي الفلسفة الحديثة بجامعة هارفرد. انظر مقدمة المترجم لكتابه كيف يتكون الدين ص١٣ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

"هو نظام من الحقائق العامة التي تؤدي إلى تغيير في الأخلاق والسلوك، إذا أخذت على محمل الجد، وإذا عاشها المؤمن باقتناع عاطفي عميق وحي"(١٠).

وإذا كان التقديس هو الخيط الناظم الذي ضم شتات مفاهيم الدين، فإنه الإشكالية قائمة أيضاً في إعطاء مفهوم محدد للدين وذلك لاختلاف الأديان حيث ما قد يصح على دين قد لا يصح على دين آخر هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى دخول عدة اتجاهات من علم الاجتماع وعلم النفس والانثروبولوجيا على خط دراسة الدين –كما سبق– وهذا التداخل والتنازع زاد من صعوبة إعطاء مفهوم محدد للدين، وذلك راجع إلى اختلاف المنطلقات، ولكننا هنا سنكتفي بالمفهوم الصحيح للدين، ونؤجل المفهوم العام للدين المتداول في الفكر الغربي إلى الفقرة التالية.

وعندما نتحدث عن الدين في هذا السياق بالذات فإن الحديث لا يتجه إلى الدين الصحيح فحسب؛ بل إنه يتجه إلى كل دين سواء كان سماوياً أو غير سماوي، فالعملية التشكيلية الذهنية التي يقوم بها الدين سواء كانت في صياغة المفاهيم الكلية أو حتى في المبادئ الأخلاقية هي واحدة، حيث الأديان تصوغ ذهنيات الأفراد والجماعات بآليات متشابهة ، وإن كانت تختلف في النتائج بناء على صحة الدين من عدمه. فالأديان الشركية على سبيل المثال تعيد تشكيل المعارف والتصورات للمنتمين إليها، كما تفعله الديانات السماوية بالضبط، وهي من هذه الزاوية منظومة من المعارف والاعتقادات والقيم أيضاً. وهذا لا يمنع من تسمية الأديان السماوية الأخرى والأديان الشركية ديناً، وقد سمى الله سبحانه وتعالى كل ما يخضع له الإنسان من قوى على وجه التقديس والانقياد ديناً، حتى لو كان ديناً غير صحيح كما في قوله سبحانه وتعالى:﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾** ﴾ [آل عمران:٨٥] وقد سمَّاها الله بذلك بما أنهم يدينون بها كما في قوله تعالى : ﴿ **وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾** ﴾ [التوبة:٢٩]وقال سبحانه وتعالى في أهل الكتاب أيضاً ﴿ **يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ** ﴾ [النساء:١٧١] وقال سبحانه عن المشركين: ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾** ﴾

(١٠) كيف يتكون الدين، ألفرد نورث هوايتهد ص ١٩ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

[الكافرون:٦] ولكن الدين الذي ارتضاه الله هو الدين الإسلامي كما في قوله تعالى :﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾** ﴾ [آل عمران:٨٥].

ما سبق يمكن أن يلقي الضوء على المفهوم الاصطلاحي للدين إلى حد ما، ولكن عندما نأتي إلى المفهوم الشرعي للدين؛ فإن الدين يشمل الجانب المعرفي والجانب التشريعي إضافة إلى الجانب القيمي، وهو المتمثل بالدين كما أنزله الله تعالى، وهو الدين بمعناه العام وهو الإسلام كما في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ** ﴾ [آل عمران:١٩] حيث يقول الشيخ السعدي رحمه الله عن هذا المعنى:" ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بين العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحثت عليها كتبه، وهو الذي لا يقبل من أحد ديناً سواه، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء، ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو على طريقهم"(١١).

ومما جاء من تعريفات العلماء للدين قول التهانوي:"هو وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إيَّاه إلى الصَّلاح في الحال والفلاح في المآل، وهذا يشتمل العقائد والأعمال"(١٢) ويعرفه الجرجاني مخصصاً إياه بالدين الإسلامي بقوله :" الدِّين: وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند رسول الله ﷺ"(١٣) أما مُحَمَّد عبد الله دراز فيقول: "الدين وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات"(١٤) فالدين على هذه المفاهيم السابقة منظومة متكاملة للفرد وللمجتمع تشمل الجانب المعرفي والتشريعي إضافة إلى الجانب القيمي.

---

(١١)تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنانص١٢٥ .
(١٢) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي ٨١٤/١ .
(١٣) التعريفات، الجرجاني ص١٠٥ .
(١٤) الدين، مُحَمَّد عبد الله دراز ص٣٣ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

ثالثاً: مفهوم الدين في الفكر الغربي:

إذا كان ما سبق حول تحديد مفهوم الدين في الفكر الإسلامي؛ فإنه عند البحث عن دلالة مفهوم الدين في الفكر الغربي وسياقاتها المختلفة سواء على الصعيد الفلسفي أو الاجتماعي؛ فإن الملاحظ من هذه السياقات انحسارها إلى مفاهيم ضيقة ترجع في بعضها إلى تصور الحقيقة أو إلى علاقة الإنسان بالإله تقريباً، ونادراً ما تتجاوز إلى دور الدين في تنظيم الحياة أو عن فعالية الدين داخل الجماعات المؤمنة به، فعندما نتوجه إلى موسوعة لالاند الفلسفة —على سبيل المثال– بصفتها من أهم الموسوعات الفلسفية فإننا نجد لالاند استعرض مجموعة من تعاريف الدين ولكنه ارتضى المفهوم القائل بأن الدين: "هو منظومة متماسكة من الممارسات والمعتقدات المتعلقة بأمور مقدسة، أي منفصلة، محرمة، وهي معتقدات وممارسات تجمع في إيلاف أخلاقي واحد يدعى جامعاً كل الذين ينتمون إليه"(١٥)، وفي المعجم الفلسفي لجميل صليبا يقول عن الدين: "الدين هو جملة من الإدراكات والاعتقادات والأفعال الحاصلة للنفس من جراء حبها لله، وعبادتها إياه وطاعتها لأوامره"(١٦) وكما يلاحظ في المفهوم حضور الجانب المعرفي في التعريف، أما كَانْت وهو المهتم بالتدشين للدين الطبيعي فإنه يقول عن الدين: "إنما الدين هو معرفة بكل واجباتنا بوصفها أوامر إلهية"(١٧) ومثله هيجل حيث يقول:" إن الدين هو بالنسبة لوعينا بذلك النطاق الذي منه كل ألغاز العالم تنحل، والتناقضات الخاصة بأعمق مدى للتفكير تجد معناها وقد تكشَّفت بعد الحجب وحيث صوت ألم القلب يخرس، إن الدين هو ذلك النطاق للحقيقية الأبدية والراحة الأبدية والسلام الأبدي"(١٨) والملاحظ هنا أن مفهوم الدين يُتداول على أنه نظام للمعرفة أو علاقة بين الله والإنسان؛ هذا على الصعيد الفلسفي؛ وعندما نحوِّل الوجهة إلى معاجم العلوم الاجتماعية فإن التعريف سيختلف من ناحية تركيزه على الجانب الوظيفي للدين وليس على الجانب التشريعي أو الجانب المعرفي للدين، حيث جاء في موسوعة علم الاجتماع: "الدين هو مجموعة من المعتقدات والرموز والممارسات التي تنهض على فكرة المقدس والتي توحد بين المؤمنين بهذه المعتقدات في مجتمع ديني اجتماعي"(١٩) ويوضح

---

(١٥) موسوعة للالاند الفلسفية،لالاند ص١٢٠٦

(١٦) المعجم الفلسفي، جميل صليبا ٥٧٢/١ .

(١٧) الدين في حدود العقل، إيمانويل كانت ص٢٤٣ .

(١٨) مدخل إلى فلسفة الدين، هيجل ضمن الأعمال الكاملة ص٢٣ .

(١٩)موسوعة علم الاجتماع،جوردون مارشال ٧٥١/٢ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

أنتوني غدنز[٢٠]المهمة الوظيفية للدين أكثر بقوله عن الدين: "مجموعة من الرموز التي تستدعي الاحترام وتوحي بالرهبة، كما أنها ترتبط بمجموعة من الطقوس والشعائر أو الممارسات الاحتفالية التي يؤديها من يعتنقون هذا المذهب الديني أو ذاك، ويحتاج كل واحد من هذه العناصر إلى بعض التفصيل والإيضاح، ففي بعض الديانات يؤمن الناس بقوة واحدة سماوية مقدسة يعبدونها، وهناك شخصيات أخرى في بعض الديانات مثل بوذا وكونفوشيوس تستوجب الاحترام والتقدير، غير أنها لا تستلزم التقديس والعبادة "[٢١].

وربما يكون أشهر تعريف للدين في الحقل الاجتماعي هو المفهوم الذي قدمه دوركايم[٢٢] حيث يقول عن الدين :" هو نسق موحد من المعتقدات والممارسات ذات الصلة بأشياء مقدسة، بمعنى أنها أشياء متفردة ذات حرمة تتوحد في مجتمع أخلاقي واحد يسمى دار العبادة، أفراده هم أتباع هذه الدار"[٢٣]أما في حقل علم النفس فيقول إيريش فروم[٢٤]عن الدين:"هو نظام من الفكر والعمل تشارك فيه مجموعة، ويعطي للفرد إطاراً للتوجيه وموضوعاً للإخلاص"[٢٥].

إن الملاحظ في المفهوم الفلسفي للدين تركيزه على الجانب المعرفي للدين إضافة إلى الإيمان بالمعتقدات، بينما المفهوم الاجتماعي والنفسي للدين فإنه يؤكد على وظيفية الدين الاجتماعية من حيث إن الدين ظاهرة اجتماعية تنظم علاقة الجماعة والأفراد بعضهم ببعض، ولا يُبحث الدين من هذه الزاوية بكونه رسالة سماوية جاءت من جهة مفارقة، وإنما الغرض هو

---

(٢٠)أنتوني غدنز عالم اجتماع انجليزي يعد من أبرز علماء الاجتماع المعاصرين، عمل أستاذاً لعلم الاجتماع وزميلاً في جامعة كمبردج ومديراً لجامعة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية ، وأصدر خلال العقود الثلاثة الماضية ما يزيد عن خمسة وثلاثين مؤلفاً مرجعياً في العلوم الاجتماعية . انظر: علم الاجتماع، انتوني غدنز.صفحة غلاف كتاب .

(٢١) علم الاجتماع، انتوني غدنز ص٥٦٩ .

(٢٢)أيميل دوركايم(١٨٥٨– ١٩١٧م)

(٢٣)علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، تحرير: جون سكوت ص٢٠٣ .

(٢٤)إيريش فروم (١٩٠٠–١٩٨٠م) عالم نفس ألماني من أبرز المحللين النفسيين ، وصاحب الثورة الثالثة في علم النفس بمدرسته المعروفة بالتحليل النفسي الإنساني ، تقلد عدة مناصب عدة قبل أن يصبح أستاذ الطب النفسي في جامعة نيويورك . انظر التحليل النفسي والدين، إيرشفروم . مقدمة المترجم ص٧.

(٢٥) التحليل النفسي والدين،إيريش فروم ص٩٥ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

الوظيفة التي يقوم بها الدين بغض النظر القصد من ورائها، أما عن مرجعيته الإلهية فهي ليس مجال بحث أو أهمية في حقول الدراسات الاجتماعية والنفسية.

وليس القصد هنا استعراض مفهوم الدين في الفكر الغربي فإن هذا له مجاله الخاص(٢٦)؛ ولكن الغرض هنا محاولة رصد كيفية تشكُّل المفهوم في الفكر الغربي. إن الملاحظ في المفاهيم السابقة انحسار المفهوم حول علاقة ذاتية بين الله والإنسان سواء كانت متعلقة بالجانب المعرفي أو الجانب التعبدي أو السلوكي، مع ملاحظة السكوت عن جانب فاعلية الدين في المجتمع وكونه نظاماً أو منهجاً يستوعب الحياة العامة والخاصة للأفراد والجماعات، ولكن هذا المفهوم المتأخر للدين ليس هو المفهوم للدين في القرون الأولى المسيحية، حيث إن هذا المفهوم المتأخر يختلف، حيث يمثل الدين في العصور المسيحية الأولى كل شيء تقريباً فعلى سبيل المثال : كما يذكره المؤرخون من أن :" القرون الوسطى كانت دينية محضة ، وكان الدين هو الذي يحدد أغراض العلم،ويسنّ نظم البحث"(٢٧).

وعندما ننظر في سبب تحول هذا المفهوم من كون الدين نظاماً معرفياً ونظاماً أخلاقياً ودستوراً يُسيِّر حياة البشر إلى اختصاره بعلاقة بين الإنسان والله، كان ذلك بعد الثورات العلمانية المتتابعة التي انتهت إلى تحييد الدين، حيث انحسر الدين إلى زاوية ضيقة تتمحور في علاقة الإنسان بإله وفق طريقته الخاصة بشكل فردي هامشي بعيداً عن دور الدين في الحياة العامة، وإن كان للدين دور في الجماعة فهو ينحصر في الناحية الأخلاقية دون ناحية النُظم والتشريع.

هذا جانب؛ وجانب آخر أن مفهوم الدين في الفكر الأوروبي جاء متأثراً بالمنطلقات الدينية المسيحية كما هو في العقيدة المسيحية من تأكيدها على العلاقة بين الله والإنسان ونزعتها إلى التطهّر من الخطيئة والتأكيد على صفاء الروح، هذا إضافة إلى أن الدين المسيحي في العموم هو إيمان أكثر منه تشريع، حيث لا صلة للدين في المجتمع أو السياسية أو الاقتصاد، وليس الدين نظاماً شاملاً للحياة، وإنما ينحى الناحية الفردية أكثر من كونه ينحى للمظاهر الجماعية ، وللتأكيد على دور الجانب

---

(٢٦) للاطلاع أكثر حول مفهوم الدين في الفكر الغربي انظر على سبيل المثال :الدين، مُحَمَّد عبد الله دراز ص٢٣، فلسفة الدين دراسة حول المفهوم، باور أحمد ص١٨، علم الاجتماع الديني، عبد الله الخريجي ص٢٨ وغيرها

(٢٧)قصة الفلسفة الحديثة ، أحمد أمين وزكي نجيب محمود ٤٨/١ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

الفردي في المفهوم الديني الغربي حتى في مجال الاعتقاد يقول مارسيل غوشيه(٢٨) حول الدين : "من المؤكد أنه لا يوجد أي مغزى مسبق يتوجب عليك إدراكه أو الخضوع له، بل يتوجب عليك أنت شخصياً من أجل أن تفرض نفسك كشخص أن تبحث عن سرِّ الكون وعن الأسباب الموجبة لوجودك، ما يُكوِّن أساس السلوك الديني من الآن فصاعداً؛ هو البحث وليس التلقي، إنه فعل الامتلاك بدلاً من التسليم غير المشروط، ويتقدم صدق القلق على صلابة اليقين في إعطاء صورة نموذجية عن الإيمان حتى فيما يخص الديانات الراسخة.. يعود هذا المنطلق نفسه أخيراً إلى إخضاع اعتبارات الحياة الآخرة إلى ضرورات الحياة الدنيا، العالم الآخر يوضع في خدمة هذا العالم"(٢٩).

وهذا المفهوم للدين عبر صيروراته التي تنتهي إلى الفردية الدينية سيكون هو المؤثر في مفهوم ممارسة الدين في الاتجاه العلماني، ونزوعه إلى الفردية وعزل المظاهر الدينية الجماعية عن الحضور في المشهد العام.

رابعاً: وظائف الدين

كما سبق الإشارة إليه من تداخل الدراسات الدينية مع الدراسات الاجتماعية؛ وبما أن الجانب الاجتماعي المتعاطي مع الدين يؤكد الوظيفي للدين في المجتمع فحسب ؛ فإن الحديث عن وظائف الدين هنا يبين لنا القصور في مفهوم الدين الوظيفي كما هو متعاطي في مباحث علوم الاجتماع، حيث إن علم الاجتماع قدم عدة وظائف للدين اختزلها في بعدها الاجتماعي دون النظرة الشمولية للدين، وكثير مما يُبحث في الدين في حقول علم الاجتماع من هذه الزاوية هو مقبول من الناحية العلمية في الأعم الأغلب، فالدين يعتبر أمان للمجتمع حيث يقوم الدين بتقوية العلاقات الاجتماعية وبضبطها ويقوم بتوزيع الأدوار على الأفراد، حيث يكون دور الفرد محدد سلفاً في الدين، وما على الفرد إلا القيام بدوره والالتزام به، ومن هذه الزاوية بالذات فإن الدين يقوم بوظيفة الربط الاجتماعي بين مكوناته، ويدفع بالأفراد إلى تقديم مصلحة المجتمع على مصالحهم الفردية، وهذا ظاهر في كثير من الأديان، وفي الدين الإسلامي على وجه الخصوص، لذلك فإن الدين يؤدي جملة من الوظائف تعجز عنها

(٢٨) مارسيل غوشيه : مؤرخ وفيلسوف فرنسي، مدير معهد الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية في باريس، قدَّم عشرات الكتب للمكتبة الفرنسية حول موضوعات عصرية في فرنسا، من أهمها: "فك السحر عن العالم: التاريخ السياسي للدين" و" الدين في الديمقراطية" و"الشرط السياسي" و "من أجل فلسفة سياسية للتربية" الذي ألفه عام ٢٠١٣م .

(٢٩) الدين في الديمقراطية مسار العلمنة، مارسيل غوشيه ص١٣٤.

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

الأنظمة الاجتماعية الأخرى، بل حتى الأنظمة السياسية تعجز عن القيام بكثير مما يقوم به الدين، ومن هذه الزاوية يقول مُحَمَّد عبد الله دراز: "وليست القوانين ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تُحترم فيها الحقوق وتؤدى الواجبات على وجهها بالكامل، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون، ومن الخطأ البين أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء، وعوضاً عن التربية والتهذيب الديني والخلقي.. بل لابد من رقيب أخلاقي يوجه لخير الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى نشر الشر والفساد، ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان"(٣٠).

فالدين يتعدى الأفراد والجماعات إلى تأسيس نظام للقيم والسلوك، وهو يعتبر في نفس الوقت مصدراً للحكم على ذلك، حيث يزود الدين الفرد بالقيم والمبادئ والمعايير الأخلاقية الضابطة للسلوك، وهو بهذا يساعد على التأقلم مع الأوضاع والتكيف مع المتغيرات الحياتية مهما كانت صعوبة الظروف، فالدين على هذا هو أساس المبادئ الأخلاقية، وذلك لأنه صادر من المطلق وليس من المتغير.

جانب آخر من وظائف الدين؛ أن الدين يعتبر أمان للنفس من المخاوف، فالإنسان يلجأ إلى الدين عندما يشعر بالمخاوف حيث لا بد للإنسان لإيجاد الطمأنينة من أن يلجأ إلى قوة أكبر منه، لذا فهناك علاقة قوية بين التدين والصحة النفسية بشكل عام، ويمكن أن يقال في هذا السياق إن الدين يقدم وظيفة الدعم السيكولوجي للإنسان، وهناك عدة دراسات علمية ربطت بين التدين والصحة النفسية على شكل إيجابي(٣١) بحيث إن هناك علاقة طردية بين قوة التدين والصحة النفسية والطمأنينة، مع ملاحظة أن هذه الدراسات التي تمت في الغرب من خلال الدراسات الميدانية والمسحية إنما تم إجراؤها على

---

(٣٠) الدين، مُحَمَّد عبد الله دراز ص٩٩ .

(٣١)إضافة إلى هذا الاتجاه فإن هناك اتجاهاً في علم النفس يرى أن التدين يمثل علاقة سلبية مع الصحة النفسية –كما سيأتي – أما الغالبية من الدراسات فأوجدت علاقة إيجابية بين التدين والصحة النفسية منها على سبيل المثال : دراسة كارل يونغ في كتابه "الإنسان يبحث عن نفسه، ترجمة: سامي علام، دار الغربال، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٣هـ، وفيكتور فرانكل في كتابه "الإنسان يبحث عن معنى مقدمة في العلاج بالمعنى، ترجمة : طلعت منصور، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ، وغيرها كثير . انظر التدين والصحة النفسية، صالح الصنيع ص٢٧.

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

ديانات باطلة ومحرفة سواء كان الدين المسحي أو غيره، ومع ذلك كانت النتائج إيجابية(٣٢)، ولو تمت هذه الدراسات على الدين الإسلامي لخرجت بنتائج مذهلة في مدى السكينة والراحة والطمأنينة التي يجدها المتدين متى التزم بدينة، كما أن هناك علاقة إيجابية جوهرية بين الالتزام الديني والرضا عن الحياة(٣٣). ولأجل ذلك فقد وضعت كثير من المؤسسات العسكرية في الغرب برنامجاً خاصاً للتدين سواء كان كنائس متنقلة في الجيوش أو في السجون ليس إيماناً منها بوجوبها من ناحية دينية؛ بقدر إيمانها بما يؤدي إليه التدين من الاستقرار النفسي وتجنب القلق، وهذه المؤسسات تدعو إلى التدين بما يحقق أهدافها فقط دون مواصلة مشوار التدين إلى آخره.

وإذا كان من وظائف الدين ما يتعلق بالجانب النفسي إضافة إلى مرجعية الدين على مستوى الأخلاق والقيم والسلوك الاجتماعي؛ فإن أهم وظيفة للدين هي ما يتعلق بالجانب المعرفي، وهذه الوظيفة لا يتم الحديث عنها في الدراسات الغربية للدين في الأعم الأغلب ، حيث يعتبر الدين مصدراً من مصادر المعرفة التي لا يمكن تجاوزها بحال من الأحول، فالدين يجاوب على كل الأسئلة الكبرى المتعلقة بالعالم وبالخير والشر وبالمغيَّبات وبالمصير الأخروي، وعلى ضخامة هذه الأسئلة وجبروتها فإنها تصبح بسيطة سهلة إذا تم تناولها من بوابة الدين، حيث الدين يجاوب على كل الأسئلة الكبرى التي لا يوجد لها جواب إلا من خلال الدين، فإذا كان الدين ضرورة اجتماعية ونفسية سيكولوجية؛ فإنه أيضاً ضرورة معرفية حيث يمثل الدين تفسيراً شاملاً للعالم وللإنسان، وفي هذا السياق؛ فإن العلمانية مشروع غير مكتمل حيث ممكن أن تغطي العلمانية بعض جوانب المعرفة؛ ولكنها تبقى عاجزة عن الإجابة على كثير من الأسئلة الماورائية أو حتى تفسيرها، فدولة القانون على سبيل المثال تستطيع أن تضمن للإنسان الحقوق، لكن لا تستطيع أن تحل مشاكله الأخلاقية والروحية، فالعلمانية تستطيع تحييد الدين، لكنها لا تستطيع أن تقدم حلاً للقضايا المعرفية الماورائية أو القيمية أو الروحية، وهذا بخلاف الدين الذي يضمن للإنسان

---

(٣٢) أجرى واتس(watts. ١٩٩٦) دراسة بهدف التعرف على تأثير التوجه الديني في الاضطرابات الانفعالية لدى عينة مكونة من (٢٥٥) طالباً وطالبة من طلاب المدارس الحكومية في أمريكا، وقد أظهرت الدراسة وجود أثر جوهري للتوجه الديني في الاضطرابات الانفعالية، حيث تبين أن انخفاض التوجه الديني يؤدي إلى حالات من الاضطراب الانفعالي كالغضب والتعاسة والخجل .انظر الاتجاه نحو الالتزام الديني وعلاقته بالتكيف النفسي والاجتماعي، زياد بركات ص١٦ . للاطلاع على هذه الدراسة وغيرها من الدراسات في هذا المجال.

(٣٣) انظر التدين وعلاقته بالكفاءة الذاتية لدى مرضى الاضطرابات القلبية، قريش فيصل ص٣١ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

حقوقه المادية بالإضافة إلى تلبية احتياجاته الروحية والإجابة على أسئلة المعرفية، ولذلك يمكن امتحان العلمانية بمجموعة من الأسئلة المعرفية أو المرجعية القيمية أو القضايا الروحية في الإنسان ليتبين منه أنه من الصعوبة تحييد الدين أو اختزال وظائفه.

المبحث الثاني: فلسفة الدين في الفكر الغربي والمنطلق الاجتماعي والنفسي

أولاً: مفهوم فلسفة الدين في الفكر الغربي

إذا كان علم اللاهوت في المسيحية يهتم بمنطق الدفاع عن العقائد المسيحية منطلقاً من معتقد مسبق وهو صحة الدين المسيحي، ويحاول إيجاد المبررات العقلية والنصيَّة لصحة المعارف التي يحويها الكتاب المقدس، ويبحث في العلل الأولى التي تؤمن بوجود حقائق مطلقة كوجود إله أنزل الدين ومهمة هذا العلم هو المحافظة على تصورات المنتمين إلى هذا الدين تجاه هذا الإله –هذا إذا كنا نتحدث في وقت كان الدين في الغرب يلعب كل الأدوار المتاحة سواء كانت السياسية أو الأخلاقية ويقيِّم الفلسفة ويصحح العلم بما أنه مصدر معرفي مستقل عن الإنسان– ولكن بعد الثورات العلمية المتتالية وبعد بسط العلمانية سيطرتها على الحقول المعرفية كلها تقريباً، انحسر الدين، فبدلاً من أن كان مصدراً للمعرفة؛ أصبحت معارفه تحت محكّ الدراسة والمساءلة. وفي هذه الأجواء المعرفية نشأ ما يصطلح عليه في الغرب باسم "فلسفة الدين" ويستعين هذا العلم بعُدَّة منهجية من علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة وعلم مقارنة الأديان والانثروبولوجيا وغيرها، حيث يعرِّف جون هيك فلسفة الدين بأنها: "التفكير الفلسفي حول الدين، فلسفة الدين إذن ليست جزء من التعاليم الدينية، ولا ينبغي أن تعالج من وجهة نظر دينية، فالملحد والمشكك والمؤمن جميعهم يستطيعون التفلسف حول الدين، فهو فرع من فروع الفلسفة، يدرس المفاهيم والمنظومات الاعتقادية الدينية، كما يدرس ظواهر التجربة الدينية، وأعمال العبادة والتأمل التي ترتكز إليها وتنشأ منها هذه المنظومات الاعتقادية"(٣٤). لذلك ففلسفة الدين في الفكر الغربي غير معنية بالدفاع عن الدين أو الحديث عن الجانب اللاهوتي فيه، وإنما البحث في تحليل الدين بصفته ظاهرة وتأثيره في الأفراد والمجتمعات، على أنه لا يوجد في الفكر الإسلامي مصطلح (فلسفة الدين) بالمفهوم الغربي، وإنما هناك دراسة للدين من ناحية أحكامه وشرائعه، أو من ناحية مقارنته بغيره من الأديان.

---

(٣٤) انظر فلسفة الدين، جون هيك، ص٣، نقلاً من كتاب: فلسفة الدين دراسة حول المفهوم، بارو أحمد ص١٥٥ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

ويشبه دراسة فلسفة الدين في الغرب بدراسة الفيزيائي الذي يتحدث عن طبيعة المادة وخصائها وقوانينها وتأثيراتها في الوسط المادي، ولكنه غير معني بأصل هذه المادة وكيف تكونت أو من خلقها، كل هذا لا يدخل في مجال علم الفيزياء، فدراسة الدين في الغرب إنما تسير وفق هذا المنهج الذي يبدأ بدراسة الدين من المنتصف ولا يدرس الدين من البداية الأولى له، ولذلك فدوركايم على سبيل المثال يتفق مع المنهج العلمي الحديث الذي يُعنى بأسباب الظواهر لا بالغايات التي تنجم عنها(٣٥) ومثله ماكس فيبر الذي قال: "على علماء الاجتماع الاهتمام بدور الدين في البنية الاجتماعية وبالتأثير الاجتماعي للدين، وليس عليهم الاهتمام بجوهرة"(٣٦) وإذا كانت فلسفة الدين تتعامل مع الدين كظاهرة؛ فإنها مع ذلك تتعامل مع ظاهرها الحسي المادي دون البحث عن المعتقدات، وربما كان أوجست كونت أصرح من يوضح هذه الفكرة بقوله: "إن الدين في عصرنا يستطيع ويجب أن يكون من وحي وضعي، ولم يعد من الممكن أبداً أن يكون كما كان في الماضي، ما دام هذا الأخير يفترض طريقة في التفكير متجاوزة. إن الإنسان الذي يفكر تفكيراً علمياً لم يعد بإمكانه الإيمان بالوحي والتعليم المسيحي للكنيسة أو الألوهية وفق المفهوم القديم"(٣٧).

ثانياً: فلسفة الدين والمنطلق الاجتماعي

إن قَدَر دراسة القضايا الدينية في العموم الأغلب أن يتم تناولها داخل حقول علم الاجتماع، ولذلك فقد تأثرت منطلقات البحث في قضايا الدين والتدين بالمنهجية العامة لعلوم الاجتماع، وظهرت سيسيولوجيا الأديان باعتبارها فرعاً من فروع علم الاجتماع على أيدي الرواد كدوركايم وماكس فيبر وأوجست كونت وغيرهم، وتطرقت للأديان الكبرى وحتى الأديان البدائية، ويمكن تعريف علم اجتماع الأديان بأنه: "دراسة مختلف المعتقدات والأفكار السحرية والدينية التي يؤمن بها الإنسان..كما يتناول مختلف الظواهر والوقائع والاحتفالات والممارسات الدينية في ضوء المقاربة السيسيولوجية، كما يدرس مختلف التأثيرات

(٣٥) انظر على سبيل المثال : مقدمة مترجم قواعد المنهج في علم الاجتماع، دوركايم ص١٠ .
(٣٦) علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، جون سكوت ص٢٠٥ .
(٣٧) نقلاً من كتاب: منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، مُحَمَّد أمزيان ص٤٨ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

التي يمارسها الدين في المجتمع إيجابياً أو سلباً"[٣٨] حيث ينظر علم الاجتماع إلى الدين من ناحية الوظائف الاجتماعية التي يؤديها الدين للمجتمع وللأفراد، فالدين نظام كباقي أنظمة المجتمع وهو جزء من البناء الكلي للمجتمع له أدواره ووظائفه الخاصة داخل النسق الاجتماعي الكلي، فلا يدرس السيسيولوجي الدين ابتداء من كونه حقيقية مطلقة، أو نازل من السماء، وإنما من حيث هو مكوَّن في الأرض ومتمثَّل في واقع المجتمع.

فليست مهمة علم الاجتماع فيما يتعلق بالدين وقضاياه دراسة النصوص الدينية وتطبيقاتها، فإن علم الاجتماع لا ينظر إلى الدين بوصفه منهج حياة أو رسالة إلهية؛ وإنما ينظر إلى الدين بوصفه وظيفة، وكيف تؤدي النصوص الدينية عملها في تشكيل المجتمع وإعادة صياغته وفق مفاهيمها. كما يبحث علم الاجتماع الديني احتياج المجتمع للتدين من عدمه، وكيف يتدين المجتمع وأوجه انعكاس التدين على الحياة الاقتصادية والسياسية وغيرها، أو دور الاقتصاد والسياسة في تحريك أنماط التدين وغير ذلك.

فعلم اجتماع الأديان ينظر إلى الدين من حيث هو وظيفة وليس من حيث هو عقيدة، وإنما هو ظاهرة كباقي الظواهر الاجتماعية، حيث يتناول بالتحليل التصورات التي يصوغها الدين، والأنماط الدينية التي تطبعها الحياة الدينية على الأفراد والمجتمعات.

ثالثاً: فلسفة الدين والمنطلق النفسي

وإذا كان الدين يتم تداوله في الفكر الغربي في حقول علم الاجتماع؛ فإنه كذلك يتم تداوله في حقول علم النفس، فإذا كان علم الاجتماع ينظر إلى الدين على أنه ظاهرة اجتماعية، فإن علم النفس ينظر إلى الدين على أنه تجربة فردية أيضاً، وربما يكون منهج التحليل النفسي الذي جاء مع فرويد من أشهر مناهج دراسة الأديان من بوابة علم النفس حيث يبين فرويد الدين من خلال منهج التحليل النفسي فيقول :"إن الأفكار الدينية تنبع من نفس الحاجة التي تنبع منها سائر فتوحات الحضارة ومنجزاتها : ضرورة الدفاع عن النفس ضد تفوق الطبيعة الساحق، وإلى ذلك ينضاف دافع ثانٍ : الرغبة الملحة الآسرة

(٣٨) انظر سوسيولوجيا الأديان، جميل حمداوي ص١٨

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

في تصحيح نواقص الثقافة، تلك التي تترك وقعاً أليماً في النفس، فضلاً عن ذلك؛ فإنه من منطلق الصحة نقول إن الحضارة تهب الأفراد تلك الأفكار، إذ أنه يلفاها موجودة قبله، مقدمة إليه على طبق جاهز، ويعجز عن اكتشافها لو أراد اكتشافها من تلقاء نفسه، إنه تراث سلسلة من الأجيال.. هذه الطريق لا يصعب اكتشافها، فهي تتكون من العلاقات التي تربط الضائقة الطفيلية بالضائقة الراشدية التي هي استمرار واستطالة لها، بحيث يكون التعليل النفسي التحليلي لتكوين الأديان هو هو نفسه، كما هو متوقع، المساهمة الطفيلية في تعليله الظاهر، لنتصور في مخيلتنا الحياة النفسية للطفل الصغير"[٣٩] ويوضح فرويد هذا التحليل بقوله : "فهذه الأفكار التي تطرح نفسها على أنها معتقدات ليست خلاصة التجربة أو النتيجة النهائية للتأمل والتفكير، وإنما هي توهمات تحقق لأقدم رغبات البشرية وأقواها وأشدها حاجة.. فالإحساس المرعب بالضائقة الطفيلية أيقظ الحاجة إلى الحماية، وهي حاجة لباها الأب، وإدراك الإنسان أن هذه الضائقة تدوم الحياة كلها جعله يتشبث بأب، أب أعظم قوة وأشد بأساً"[٤٠] وعموم ما ذهب إليه فرويد في تحليله لظاهرة الدين؛ أن الدين ينبع من عجز الإنسان عن مواجهة قوى الطبيعة، ولذلك يلجأ إلى إله كما يلجأ الطفل الصغير إلى أبيه عندما يواجه الخوف أو الخطر.

ودراسة الدين من بوابة التحليل النفسي استمرت حتى بعد فرويد حيث سلك هذه المدرسة إيريش فروم حيث يبين أن الإنسان اخترع الدين من أجل إشباع حاجاته ورغباته حيث يقول: "وقد اتجه الإنسان إلى الآلهة لإشباع تلك الحاجات العملية التي لم يستطع هو ذاته أن يعد العدة لها، وتلك الحاجات التي لم يصل لأجلها قد كان في مقدوره إشباعها، وكلما ازداد فهم الإنسان للطبيعة وسيطرته عليها؛ قلت حاجته إلى استخدام الدين تفسيراً علمياً ووسيلة سحرية للسيطرة على الطبيعة"[٤١] ويفسر فروم حاجة الإنسان النفسية إلى الدين من خلال دراسته للطقوس الدينية، وأن الإنسان يمارس الطقوس كنوع من احتياجه النفسي إليها حيث يقول: "وفي وسع التحليل النفسي أن يُظهر أن السلوك الإكراهي الطقسي هو نتيجة تأثيرات شديدة واضحة في ذاتها للمريض، وهو يتغلب عليها خلف ظهره –إن جاز التعبير– على شكل طقس، وفي حالة من الحالات الإكراهي الاغتسالي يكشف المرء أن الطقس الاغتسالي هو محاولة للتخلص من إحساس قوي بالذنب.. ولا عجب أن

(٣٩) انظر مستقبل وهم، فرويد ص٢٩، ٣٢ .
(٤٠) انظر مستقبل وهم، فرويد ص٤١
(٤١) انظر التحليل النفسي والدين، إيريش فروم ص١٧٥

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

المحللين النفسيين الذين وجَّهوا اهتمامهم إلى الطقوس الدينية قد راعهم الشبه بين الطقوس الإكراهية الخاصة التي لاحظوها في مرضاهم، وما وجدوه في الدين من شعائر منمذجة اجتماعياً، وتوقعوا أن يجدوا الطقوس الدينية تتبع تلك الآلية التي تتبعها الإكراهات العصابية "(٤٢)

على أن علماء النفس يقدمون نظريتين متناقضتين حول العلاقة بين الارتياح النفسي والتدين، فنجد من جهة اتجاهاً يشير إلى سهولة العلاج ويُسره لدى الأشخاص ذوي الاعتقاد الديني القوي، الأمر الذي دفع بأنصار هذا الاتجاه إلى اعتماد أسلوب علاجي نفسي، عرف بالعلاج الروحي، القائم على دعم الجانب الديني في شخصية الفرد. ومن جهة ثانية نجد التحليل النفسي منذ سيجموند فرويد وهو يحاول إثبات الأثر السلبي للدين على شخصية الفرد، حيث يؤكد على مسؤولية الديانات في ظهور بعض الاضطرابات النفسية الفردية وأيضا في اضطراب المجتمع(٤٣).

رابعاً: نقد المنطلق والاجتماعي والنفسي في فلسفة الدين

يذكر دوركايم في إحدى قواعده المنهجية في دراسة علم الاجتماع أن :"الاعتراف بصحة القاعدة مبدئياً ونظرياً أكثر يسراً لسوء الحظ من المواظبة على تطبيقها عملياً"(٤٤)، وإذا أردنا أن نبدأ من هذا القاعدة المهمَّة التي ذكرها دوركايم؛ فإن الاعتراف بإمكانية دراسة الدين في الفكر الغربي وخصوصاً في منطلقاتها الاجتماعية والنفسية سهل جداً، ولكن عند التطبيق ودراسة الدين بشكل معمَّق لا يمكن البقاء على هذه المنطلقات، حيث يكتنفها الكثير من الصعوبات والتناقضات، فإغفال جانب الألوهية في دراسة الدين أمر ترفضه المنهجية العلمية، فكل دراسة للدين دون استنطاق الجانب الإلهي من الدين هي دراسات ناقصة مهما كانت درجة عمقها، وتفريغ الدين من جانب الألوهية هو امتداد لدراسة الدين من زاوية المنهج الوضعي التجريبي الذي اختطه أوجست كونت حيث يقول:" إن الدين في عصرنا يستطيع ويجب أن يكون من وحي وضعي، ولم يعد من

(٤٢) انظر التحليل النفسي والدين، إيريش فروم ص١٧٨

(٤٣) انظر التدين والصحة النفسية في الجزائر، طيبي غماري، مجلة التشريع الإسلامي والأخلاق، ربيع ٢٠١٤م ص٦٥.

(٤٤) قواعد المنهج في علم الاجتماع، دوركايم ص١٤ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

الممكن أبداً أن يكون كما كان في الماضي"[٤٥] أي باعتماده على الميتافيزيقا، وإنما لا بد أن يخضع للتجربة، لذلك كان السكوت عن الجانب الإلهي من الدين لم يقدم حلولاً ذات بال، وإنما قد يفسر الواقع فيما يتعلق بعلم الاجتماع الديني، أو الحالات فيما يتعلق بعلم النفس الديني، لذلك فعلم النفس على سبيل المثال يفسر حالة الإنسان فقط ولا يقدم له العلاج، حيث لا يُطمئن النفس إلا قوة أكبر منها، وهو ما يحاول علم النفس السكوت عنه وتجاوزه بناء على أن الخضوع لقوى ما ورائية تنم عن بدائية في المجتمعات.

جانب آخر من دراسات فلسفة الدين وقضاياه في الغرب والمتمددة على حقول علم الاجتماع وحقول علم النفس، أن تلك المناهج التي أخذت صبغة القطعيَّة –إلى حدما– إنما انطلقت في تأصيل هذه المناهج من مفهوم الدين في الغرب وهو الدين المسيحي، وعلى وجه أخص الدين المسيحي كما قدمته الكنيسة، وأنه هو الدين الصحيح الكامل كما يرى هيجل[٤٦]، والمعروف في الدين المسيحي الذي يؤمن به المسيحيون اليوم أن مسألة الألوهية مسألة شائكة جداً، والإيمان بها يكتنفه كثير من الصعوبة حتى عند المؤمنين بها، حيث إن تفسير الإله زيادة على الاختلاف في طبيعته بين الطوائف المسيحية؛ هو تصور ليس بالأمر السهل فهمه على وجه الدقة، بناء على أنه ثلاثة آلهة وفي نفس الوقت هو إله واحد هذا جانب؛ وجانب آخر مما يتفرع من قضية الألوهية هذه؛ قضية الوحي، فالوحي في الديانة المسيحية أيضاً يكتنفه شيء من الصعوبة، حيث إن الإله نفسه نزل إلى الأرض، والنصوص المقدسة ليست من كلام الإله، وإنما من كلام من شاهدوه من الحواريين، وإنما صارت مقدسة بناء على أن المسيح أرسلهم وجرت على أيديهم بعض المعجزات كما يتناقله المسيحيون، وحاصل القول في هذا أن قضية الألوهية وقضية الوحي أمر يكتنفه الكثير من الصعوبات في الديانة المسيحية، ومع هذه الصعوبات فإن المفكرين الغربيين وعلماء الاجتماع الذين تكلموا في فلسفة الدين إنما كان منطلقهم هو فهمهم للدين المسيحي، وهذا يثير كثير من المشكلات المنهجية، حيث إن هذا المفهوم ليس هو بالضرورة هو المفهوم الصحيح للدين من حيث هو دين، ولذلك جاءت تلك الدراسات في مفهومها لبقية الأديان بما فيها الدين الإسلامي بمفهوم مشَّوه نظراً لإشكالية تصور الألوهية والوحي في الدين

---

(٤٥) نقلاً من كتاب منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، مُحَمَّد أمزيان ص٤٨ .

(٤٦) قسم هيجل الأديان إلى دين مطلق وهو الدين المسيحي، وأديان محددة وهي الأديان الطبيعية والأديان الروحية . انظر تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص٢٨٥.

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

المسيحي. وبناء على هذا المفهوم تم بناء الكثير من النظريات حول الدين، وهذه النظريات أصحبت مسلمات وقوانين لا تقبل النقاش، وتم تعميها على دراسات فلسفة الدين، وتم استيراد هذه النظريات —فيما بعد– من قِبل العلمانيين العرب في دراسة الدين الإسلامي وقضاياه، دون استنطاق للدين الإسلامي ومدى صحة إجراء تلك النظريات عليه، ولذلك فقد تأثرت نتائج كثير من العرب الذين درسوا قضايا الدين وتحولاته بهذه النظريات من حيث إغفالها لجانب الألوهية، أو القيم المرجوة أو مبدأ الدوافع وغيرها، مع غياب تام لحضور القضايا الغيبية في هذه الدراسات.

هذا المفهوم الغربي للدين وقضاياه أصبح فيما بعد هو المقياس، وعلى أساسه تقبل النتائج أو ترفض، وتُصاغ على حالة الدين في الغرب المنطلقة من الإيمان المسيحي نظريات فلسفة الدين، وفي هذا السياق نقف على نص لفرويد يرى فيه ضرورة تجاوز الدين بسب وجود بعض التناقضات التي لا حل لها –وذلك انطلاقاً من فهمه للديانة المسيحية – حيث يقول: "فالمجتمع يعلم إلى أي أساس واهن تقوم عليه مذاهبه الدينية.. وعلينا أن نؤمن لأن أسلافنا آمنوا، لكن هؤلاء الأسلاف كانوا أشد جهلاً منا بكثير، وكانوا يؤمنون بأشياء يتعذر اليوم قبولها، من الممكن إذن أن تدخل المذاهب الدينية نفسها في هذا الباب، والأدلة التي تركوها لنا ميراثاً، مدونة في نصوص يحيط بها هي نفسها الشك، فهذه النصوص تعجُّ بالتناقضات والمراجعات والتدليسات، ولا يمكن الوثوق إليها حتى عندما تتكلم عن وقائع ثابتة، أما ما تدعيه لنصها الحرفي أو على الأقل لمؤداه وفحواه من وحي إلهي، فليس بذي وزن كبير، إذن هذا التوكيد يشكل هو نفسه جزءً من تلك المنظومة المذهبية المطلوب تمحيصها والتحقق منها، ولا يمكن لفرضية كائنة ما كانت أن تبرهن على نفسها بنفسها"[٤٧] وإشكالات فرويد نفسها —كما هو ظاهر– هي نابعة من تصوره للدين المسحي بالذات، وعليه رتب نظرياته في التحليل النفسي في موضوع الدين وما خرج به من نتائج ليس المجال هنا ذكرها، وهذه الإشكاليات التي واجهها فرويد في الدين المسيحي ليست بالضرورة أن تكون موجود في بقية الأديان والدين الإسلامي على وجه الخصوص، بل حتى حديث ماركس العنيف تجاه الدين[٤٨] إنما كان منطلقاً من الدين المسيحي بل الكاثوليكي بالذات، ولا ينطبق حتى على المذهب البروتستانتي[٤٩] فضلاً عن الدين الإسلامي، لذلك فإن الدراسات التي

(٤٧) انظر مستقبل وهم، فرويد ص ٣٦ .

(٤٨) انظر موقف ماركس الحاد من الدين وأنه على حسب "زعمه أفيون الشعوب" موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي ٤١٩/٢، ٤٢٠.

(٤٩)لماكس فيبر موقف إيجابي من المذهب البروتستانتي، انظر الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ماكس فيبر ص١٦.

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

انطلقت من هذه النظريات في فلسفة الدين لتعالج قضايا الدين في المجتمع الإسلامي ستكون نتائجها محل مسائلة كبيرة، لذا فإنه يصدق القول إن علم "فلسفة الدين" هو علم احتكاري غربي بامتياز، منطلق في مفهومه للدين من الدين المسيحي –مع إيماننا بأنه دين غير صحيح في وضعه الحالي– وتطبيق نتائجه على الدين وقضاياه في المجتمع الإسلامي مغالطة منهجية لا يمكن تمريرها.

المبحث الثالث: التحليل المنهجي لأنسنة المناهج في دراسة الدين

أولاً: إشكالية نزع الجانب الإلهي من الدين

ما سبق كان الحديث عن مفهوم الدين وفلسفته في الفكر الغربي ، ومدى قصور مفهوم الدين أو وظائفه في الفكر الغربي ، وبيان أن المفهوم الإسلامي للدين أشمل وأظهر وأقدر على الإجابة على الأسئلة ، وإذا تبين الاختلاف في مفهوم الدين بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي في تعاطيه مع الدين ، فما سرّ هذا الاختلاف وما هي انعكاساته ، وهذا ما سيجيب عليه هذا الجزء من البحث .

إن الدارس في موضع الدين والبحث في إشكالياته يواجه قبل الدخول في تفاصيل الموضوع إشكالية المنهج قبل أي إشكالية أخرى، والتي تتمثل بسؤال المنهج قبل أي سؤال آخر، أي بأي منهج يتم دراسة مواضيع الدين والبحث في إشكاليته، وهل سؤال المنهج خاص بدراسة الدين في الفكر الغربي، أم أن ذلك ينسحب حتى على الدراسات العربية في موضوع الدين.

إننا عندما نبدأ من الأساس حول منهج دراسة إشكالية الدين، فإننا لا يمكن أن نغفل أن دراسة الدين أو فلسفة الدين –كما هو مصطلح عليه في الغرب – إنما تطورت داخل حقول العلوم الاجتماعية بشكل أكبر، وإن كان لها حضور في بعض الحقول المعرفية الأخرى، ويرجع سبب ذلك أن العلوم الاجتماعية لا تنظر إلى الدين من كونه رسالة إلهية جاءت من جهة مفارقة، وإنما تنظر إلى الدين كواقعة اجتماعية، وتدرس الدين من حيث حضوره في الجماعة ودوره في المجتمع فحسب دون أي اعتبارات تتعلق بالجانب الإلهي من الدين، ولذلك فإن الدين من هذا المنطلق داخل ضمن حقول العلوم الإنسانية، مثله مثل

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

علم النفس أو الانثروبولوجيا،ولذلك لا توجد في هذه الدراسات أي إشارة إلى موضوع الألوهية أو الأمر والنهي أو التشريع، وكل هذه المباحث غائبة تماماً عن مباحث الدين في الفكر الغربي، وما ذلك إلا لأنها خارج العلوم الإنسانية.

إن نزع الجانب الإلهي من الدين في الفكر الغربي، وحصر الدين داخل دائرة العلوم الإنسانية، لم يقتصر على الفكر الغربي فقط، بل انسحب ذلك على الدراسات العربية التي تتناول الدين من زاوية علم الاجتماع أو حتى على مستوى الدراسات الأيديولوجية التي تتصارع فيما بينها من أجل إحداث تغيير في هويات المجتمع أو مظاهره العامة. وهذا راجع بالأساس إلى إشكالية أصالة المناهج التي تتبناها الدراسات العربية في دراساتها للدين ولقضاياه.

لذلك فإن دراسة الدين وفق مناهج العلوم الإنسانية ممكن أن نطلق عليها: أنسنة مناهج دراسة الدين، وهي استبعاد أي منهج مستمد من أي جهة غير مادية، وتفسير كل المظاهر والدوافع والتصورات وفق الرؤية المادية الإنسانية، وهذا بالضبط ما تدور عليه أغلب الدراسات التي اهتمت في الدين وقضاياه وخصوصاً الدراسات العربية التي تعاني من فقر منهجي في تناولها لهذه الإشكالية.

ثانياً: المساواة على مستوى المنهج بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية

إذا كانت أنسنة دراسة الدين وقضاياه تعتبر من أهم القضايا على مستوى المنهج في هذا المجال، والتي أفرزت العديد من الإشكاليات والتي بدروها حرفت نتائج كثير من الدراسات إلى مستوى بعيد عن العلمية؛ فإن هناك مشكلة منهجية لا تقل أهمية عنها تم تدشينها في حقول الدراسات الغربية ومن ثم استيرادها وإعمالها في حقول الدراسات العربية والدراسات الدينية على وجه الخصوص، وتتمثل هذا الإشكالية بسؤال المنهج أيضاً، حيث إن الاتجاهات الغربية بما أنها ترى أن العلوم التجريبية تسير وفق قوانين طبيعية محكمة يجب على العالِم اكتشافها واعتمادها في دراسات العلوم التجريبية سواء كان قانون السببية أو غيرها، فإن العلوم الإنسانية مثلها مثل العلوم الطبيعية تسير وفق قوانين محكمة وما على العالِم إلا اكتشاف هذه القوانين

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

واعتمادها في النتائج[٥٠]، وبما أن العلوم الإنسانية مثلها مثل العلوم الطبيعية تيسر وفق قواعد طبيعية مادية، فإنه ينبغي دراسة العلوم الإنسانية بنفس المناهج التي ندرس بها العلوم الطبيعية.

إن العلوم الإنسانية –حسب هذا الاتجاه المنهجي السابق– بما فيها العلوم الاجتماعية تتبع قوانين من خلالها يحصل التحول أو الثبات، وليست هذه الظواهر تحصل في ظروف متعالية عن القوانين الكونية، وهذا الاتجاه يساعد في تحفيز الذهن لاكتشاف قوانين العلوم الاجتماعية ومؤثرات تحول المجتمعات، ولأجل ذلك فمن وجهة نظر بعض علماء الاجتماع أنه ينبغي دراسة العلوم الإنسانية بنفس الطريقة التي ندرس بها العلوم التجريبية، وهذا يؤدي إلى نتائج أكثر دقة من التعامل مع هذه الظواهر والتحولات بمنهج ميتافيزيقي، ولذلك حدا هذا بعالم الاجتماع الفرنسي أوجست كونت[٥١] إلى هذه المساواة الحتمية، حيث أطلق على علم الاجتماع بـ(الفيزياء الاجتماعية) بقوله :" إنه لدينا الآن فيزياء سماوية، وفيزياء أرضية ميكانيكية أو كيميائية، وفيزياء نباتية وحيوانية، ومازلنا بحاجة إلى نوع آخر من الفيزياء هو الفيزياء الاجتماعية، حتى يكتمل نسقنا المعرفي عن الطبيعة. وأعني بالفيزياء الاجتماعية، ذلك العلم الذي يتخذ من الظواهر الاجتماعية موضوعاً للدراسة، باعتبار هذه الظواهر من روح الظواهر العلمية والطبيعية والكيميائية والفيسيولوجية نفسها، من حيث كونها موضوعاً للقوانين الثابتة"[٥٢].

وربما يكون عالم الاجتماع الفرنسي إيميل دوركايم من أكثر من أبان أيضاً عن هذه المماهاة بن العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية حيث جعل هذه القاعدة أول القواعد في دراسة علم الاجتماع في كتابه المشهور (قواعد المنهج في علم الاجتماع) حيث يقول: "يجب ملاحظة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء"[٥٣] ويفصّل ذلك بقوله: "ومهما يكن من شيء فإن الظواهر

---

(٥٠) هناك اتجاهات في الغرب نفسه تميز في منهجية البحث بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية وليست بهذه القطعية، انظر على سبيل المثال : الفوارق الموضوعية بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية في كتاب منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، مُحَمَّد أمزيان ص٢٥٦ وما بعدها .

(٥١) أوجست كنت (١٧٩٨–١٨٥٧) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، أول من أطلق على علم الاجتماع هذا الاسم، عمل على ضرورة بناء النظريات العلمية على الملاحظة والتجربة، مؤسس الوضعية الحديثة . انظر تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص٣١٦.

(٥٢)التفكير الاجتماعيدراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية، أحمد الخشاب:ص ٥٤٥.

(٥٣) قواعد المنهج في علم الاجتماع، دوركايم ص٧٠ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

الاجتماعية أشياء ويجب أن تدرس على أنها أشياء، وإذا أردنا البرهنة على صدق هذه القضية فلسنا في حاجة ما إلى دراسة طبيعيَّة هذه الظواهر دراسة فلسفية أو إلى مناقشة أوجه الشبه بينها وبين الظواهر الطبيعية الأقل مرتبة منها أو وجود، ويكفي في هذه الحال أن نعلم أن هذه الظواهر هي المادة الوحدة التي يمكن اتخاذها موضوعاً لعلم الاجتماع، فإن الشيء هو حقيقة ما يقع تحت ملاحظتنا، أو هو ما يقدم نفسه لها"(٥٤).

ويرجع سبب هذه التسوية المنهجية بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية؛ أن هذه العلوم نشأت في ظل علمنة العلم في الغرب، وأن مصادر المعرفة لا تكون إلا مادية، واستبعاد أي مصدر ماورائي للمعرفة أو خارج الحس، بناء على النظرة الميكانيكية للعالم، ومن هذه التسوية نشأة وحدة العلوم في الغرب، وأن مناهج البحث في العلوم ينبغي أن تكون واحدة، وهذا انسحب حتى على كافة العلوم الإنسانية، وتأثرت بهذه التسوية النظريات النقدية في مجال الأدب والشعر، ولذلك فقد ظهرت النظرية البنيويَّة في الأدب تتعامل مع النصوص الأدبية وفق قوانين أشبه بقوانين العلوم الطبيعية، حيث تكثر الرموز والأشكال الهندسية في دراسة النصوص وفق النظرية البنيوية، بناء على أن النصوص تتشكَّل وفق قوانين أشبه بالقوانين الطبيعية، وإن كانت منسوبة إلى الإنسان وليس إلى الطبيعة.

وإذا نظرنا إلى علم الظواهر الاجتماعية على أنه علم طبيعي بما فيه من دراسة الدين وقضاياه –حسب المفهوم الغربي– فمعنى ذلك أنه يسير وفق قوانين ثابته أشبه بقوانين العلوم الطبيعية، وتعتمد على عدة عوامل وليس عاملاً واحداً، إضافة إلى الظاهرة العلائقية بين عواملها وقوانينها وعلاقات التلازم، وعند تفسير هذه الظواهر فإنه لا بد من الأخذ بعين الاعتبار وجه التداخل والتركيب في كثير منها، ولا بد أيضاً من الأخذ بقاعدة دوركايم في أنه "لا يصح تفسير الظاهرة الأكثر تعقيداً بالظاهرة الأقل تركيباً"(٥٥) وعندما نأتي إلى قانون السببية على سبيل المثال؛ فإن هذا القانون كما أنه يعمل عمله في الظواهر الطبيعية المركبة، فإنه هذا القانون نفسه يعمل في الظواهر الاجتماعية، وعلى هذا فإن في اكتشاف سرَّ هذه القوانين يمكن التأثير على مسار الظواهر الاجتماعية المعقَّدة ومنها المسارات الاجتماعية الناتجة عن مسارات الدين وقضاياه، كما يمكن التعديل على مسارات

(٥٤) قواعد المنهج في علم الاجتماع، دوركايم ص٩٠
(٥٥) قواعد المنهج في علم الاجتماع، دوكايم ص١٨ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

التحولات الدينية والتغيير فيها أو التعديل عليها أحياناً، وهذا المنهج –أعني به الأخذ بقانون السببية ومآلاته بصفته قانون طبيعي– هو الذي تم عليه العمل في إحداث تغيرات كبرى في البُنى الاجتماعية في كثير من الدول التي طالها الاستعمار، حيث حصل التغيير في كثير من أنماط الدين بناء على قوانين ومعادلات اجتماعية أشبه بالمعادلات الرياضية، حيث حصل التحول الاجتماعي والأنماط الدينية في فترات زمنية محددة كما هو معروف.

ولأجل المساواة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية على مستوى المنهج –كما هو في الدراسات الغربية– تم استبعاد مجموعة من العلوم مثل العلوم الدينية المبنيَّة على الوحي، أو حتى علوم السحر، لأنه حسب نظرية وحدة العلوم أن هذه الحقول المعرفية لا يمكن دراستها علمياً، حيث لا يمكن إيجاد قوانين حسية داخل هذه العلوم توازي القوانين الطبيعية لدراستها، وهذا ناتج أن العلوم الإنسانية وخصوصاً العلوم الاجتماعية تم علمنتها في الغرب، ولذلك فإن عموم الدراسات الغربية التي تنطلق من ميدان العلوم الإنسانية في دراسة الدين وقضاياه تنطلق من منطلق علماني وتتبنَّى كثيراً من المفاهيم العلمانية، ولذلك فإن هذه المناهج تستبعد النوازع الدينية والأخلاقية للدين، بل حتى الأعمال التي يلتزم بها بعض المتدينين على سبيل المثال، ولا ترى منها إلا الجانب المادي المحسوس كالتطوع لوجه الله مثلاً ، أو بذل العلم لوجه الله ، لذا فإن كثيراً من الدراسات الاستشراقية لم تستوعب العمل العلمي وخصوصاً جمع الأحاديث النبوية في العصور الإسلامية الأولى وأنه لا يمكن أن يكون ذا منزع أخلاقي ديني ، بل تؤكد كثير من الدراسات أنه وراءه دوافع سياسية مادية(٥٦).

(٥٦)انظر على سبيل المثال: مذاهب التفسيرالإسلامي، جولد زيهر ص٨١ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

المبحث الرابع : نقد أنسنة مناهج الدين في الفكر الغربي

أولاً: معارضة وحدة المناهج

إن المساواة بين منهجية البحث في العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية وإن كانت هي الظاهرة على السطح في الفكر الغربي وربما تكون الناطق الرسمي لمناهج البحث في هذه الحقول، ولا يعلو صوت فوق صوت هذا الاتجاه؛ فإن هناك أصواتاً اتخذت موقفاً مغايراً من هذه المساواة على صعيد المنهج، وإن كانت لم تحض بالاشتهار، ولكن يبقى أنها تجعل وحدة العلوم هذه أمراً غير مقطوع به حيث يقول لويس ورث(٥٧): " وقد يكون صحيحاً أنه توجد بعض الظواهر الاجتماعية وربما بعض الجوانب في كل الأحداث الاجتماعية التي يمكن النظر إليها من الخارج وكأنها أشياء، ولكن ينبغي ألا يقودنا هذا إلى القول بأن تلك التجليات للحياة الاجتماعية التي تعبر عن نفسها بأشياء مادية هي وحدها الحقيقة، وإذا قصرنا العلم الاجتماعي على تلك الأشياء المادية التي يمكن إدراكها وقياسها من الخارج فإننا بذلك نجعل تصورنا للعلم الاجتماعي تصوراً ضيقاً جداً.. إن كون الكائنات البشرية مختلفة عن الأشياء الأخرى في الطبيعة؛ لا يعني أننا لا نستطيع الجزم بشيء محدد بشأنها، ورغم أن الكائنات البشرية تكشف في أفعالها عن نوع من العلاقة السببية لا يمكن تطبيقه على أية أشياء أخرى في الطبيعة ألا وهو نظام الدوافع.. وأياً كانت إمكانيات التجرد الكامل لدى دراسة الأشياء المادية؛ إلا أننا لا نستطيع في الحياة الاجتماعية أن نهمل قيم الفعل وأهدافه دون أن تغيب عنا أهمية الكثير من الحقائق الموجودة.. وبناء عليه؛ فإن ثمة تمييزاً ذا أساس متين بين الحقائق الموضوعية والحقائق الذاتية، وهذا ناجم عن الفرق بين الملاحظة الخارجية والداخلية أو حسب العبارات التي استعملها وليم جيمس(٥٨) بين (معرفتنا عن الأشياء) وبين (معرفتنا الشخصية بها).. فالأشياء المادية يمكن أن تعرف فقط من الخارج، بينما لا يمكن

---

(٥٧)لويس ورث (١٨٩٧ –١٩٥٢) عالم اجتماع أمريكي وعضو في مدرسة علم الاجتماع في شيكاغو، ولد لويس ورث في ألمانيا وهاجر إلى الولايات المتحدة، حيث درس هناك وأصبح شخصية رائدة في علم الاجتماع المدرسي في شيكاغو.

(٥٨) وليم جيمس (١٨٤٢–١٩١٠م) فيلسوف أمريكي، تابع دراساته العلمية والفلسفية في معاهد وجامعات أمريكية وأوروبية إلى أن حصل على الدكتوراه في الطب . ثم اتجه للفلسفة فألقى الدروس ونشر الكتب في هذا المجال . انظر تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص٤١٦ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

التعرف على العمليات العقلية والاجتماعية إلا من الداخل"[٥٩]، وعندما نأتي إلى عالم الاجتماع بوتومور[٦٠] فإنه وقف من الوحدة المنهجية بين علوم الإنسان وعلوم الطبيعة موقفاً واضحاً، حيث أبان عن الإشكالية هذه في حديثه عن مناهج علم الاجتماع بقوله:"من المفيد أن نبدأ حديثنا بتحديد الخطوط العامة للجدل الذي ثار بين أولئك الذين يفكرون في علم الاجتماع في ضوء العلوم الطبيعية، وأولئك الذين يعتبرونه شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف عن أي علم طبيعي، وربما أقرب إلى التاريخ أو الفلسفة "[٦١].وبين بوتومور أن الفيلسوف الألماني دليثي[٦٢] أول من فرق بوضوح التفاوت المنهجي بين الحقلين حيث ينقل عن دلثي التفريق بقوله :"هناك فرقان رئيسيان بين العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي أو الثقافي، أولاهما: أن العالم الطبيعي لا يمكن ملاحظته وتفسيره إلا من الخارج، بينما يمكن أن نلاحظ عالم النشاط الإنساني ونفهمه من الداخل، ولا يمكن أن يكون واضحاً إلا لأننا ننتمي إلى هذا العالم ولنا صلة بما أنتجته عقول مماثلة لعقولنا. والفارق الثاني: أن العلاقات بين ظواهر العالم الطبيعي علاقات علّية آلية، بينما العلاقات الموجودة بين ظواهر العالم الإنساني علاقات تخضع للقيمة وترتبط بالهدف ويترتب على هذا –في رأي دلثي– أن الدراسات الإنسانية لا يجب أن تسعى إلى إيجاد صلات علّية أو صياغة قوانين عامة شاملة، وإنما تهتم بوضع تصنيفات تنميطية للشخصية والثقافة تكون بمثابة إطار لفهم النشاطات والأهداف الإنسانية في الظروف المختلفة"[٦٣] .

إضافة إلى ما ذكره الفيلسوف الألماني دلثي بين الفروق المنهجية بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، فإن العلوم الإنسانية

---

(٥٩) انظر مقدمة مترجم كتاب الأيديولوجيا واليوتوبيا مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة ص٧٠ . وهو الذي ترجم الكتاب من الألمانية إلى الانجليزية.

(٦٠) توماس بيرتونبوتومور (١٩٢٠– ١٩٩٢) عالم اجتماع انجليزي اهتم بدراسة موضوعات الفلسفة الاجتماعية وعلم الاجتماع المعرفي، وشغل لفترة طويله منصب سكرتير الاتحاد الدولي لعلم الاجتماع . انظر: تمهيد في علم الاجتماع. مقدمة المترجم ص٢٢ .

(٦١) تمهيد في علم الاجتماع،بوتومور ص٦٨ .

(٦٢) فيلهلم دلثي (١٨٣٣–١٩١١) فيلسوف ألماني تعلم الفلسفة حتى وصل إلى رتبة أستاذ كرسي في الفلسفة في جامعة برلين مع تدريسه في بعض الجامعات الألمانية، وقد اهتم بنقد العقل التاريخي، وكانت لأبحاثه التاريخية تأثيرات كبيرة في فهم وضع الإنسان في العالم . انظر موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي ٤٧٥/١.

(٦٣)تمهيد في علم الاجتماع،بوتومور ص٦٨ .

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

تمتاز بنوع عالٍ من درجة التعقيد بين مفاصلها، إضافة إلى درجة العلائقية المتشابكة بين أطرافها، مما يصعب معه فكّ الاشتباك بين العوامل المنتجة للظاهرة الإنسانية، فالعلوم الإنسانية والاجتماعية على سبيل المثال تتداخل فيها النوازع الإنسانية والدوافع الشخصية، وتؤثر فيها التغيرات الحتمية في الطبيعية البشرية مما يصعب معه قياسها أو تحديدها فهي لا تقاس بالكمية ولا بوحدات القياس المعروفة في العلوم الطبيعية.

ثانياً: استحالة استبعاد علوم الوحي من دائرة المنهج

إذا كان ما سبق يبين وجه الاختلاف بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، ومن ثم اختلاف المناهج في دراستها، حيث الفكر الغربي بمنزعه العلماني يحصر مجالات العلوم بمجالين لا ثالث لهما وهما مجال العلوم الإنسانية، ومجال العلوم الطبيعية أو التجريبية، وكل فرع من فروع المعرفة لا بد أن ينضوي تحت أحد هذين المجالين؛ فإن هناك حقلاً من العلوم يبقى في دائرة المسكوت عنه في الفكر الغربي، ويصح أن يطلق عليه أنه علم بقي تحت الظل لسنوات عديدة ولا زال كذلك، وهو حقل العلوم الإلهية أو علوم الوحي، حيث بقي هذا الحقل من المعرفة بداية من عصر التنوير وما بعده حقلاً غير معروفاً بصفته مصدراً للمعرفة إلا على نطاق ضيق جداً في دوائر الدراسات اللاهوتية، أما عندما يتم التعاطي مع هذا الحقل في دائرة الفلسفة على سبيل المثال؛ فإنه يتم التعاطي معه بمنهجية العلوم الإنسانية، التي ترى أن المعرفة الإلهية ينبغي أن تخضع لقوانين العلوم الإنسانية لذلك لابد من تأنسيها، حيث تنطلق هذه المنهجية الغربية التي ترى استبعاد حقل علوم الوحي من دراستها للدين وقضاياه ليس بصفتها أمراً إلهياً أو معرفة خارجة عن الحس، أو ترى في السلوك الديني سلوك ينزع إلى القيمة والهدف الماورائي الأخروي المتعالي عن المادة؛ وإنما تدرس هذا الحقل بأدوات العلوم المادية البحتة، وهذا المنطلق في دراسة الدين وقضاياه في الغرب انسحب على الدراسات المتتبعة لهذا المنهج في المجتمع العربي الإسلامي، بنفس المبضع وبنفس أدوات التشريح، ولذلك كانت المخرجات هي نفسها. وقد أشار الأستاذ مُحَمَّد أمزيان إلى هذا الخلل المنهجي بقوله: "فالعلوم الطبيعية تتعامل مع ظواهر ذات طبيعة بسيطة التكوين، أما العلوم الإنسانية فإنها على العكس من ذلك تتعامل مع ظواهر حية حركية أكثر تعقيداً في تكوينها، وعندما حاول علماء الاجتماع تطبيق النموذج الطبيعي على الظواهر الإنسانية كانوا يركزون على الظواهر الملموسة والمحسوسة في الإنسان، والمتمثلة في سلوكهم الظاهري القابل للإدراك والمشاهدة، دون النفاذ إلى بواعث هذا

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

السلوك، ودون النفاذ إلى الجوانب المعنوية والروحية للإنسان، ولذلك جاءت النتائج التي انتهت إليها الدراسات الاجتماعية نتائج مشوهة لحقيقة الإنسان، لأنها اختزلته في جانبه المادي الملموس فقط، ولم تر في القيم الروحية التي يدين بها سوى بعض المظاهر السلوكية التي يمارسها على شكل طقوس وشعائر، فسرها علماء الاجتماع بالعادات الاجتماعية التي يمارسها أفراد جماعة أو مجتمع ما، متجاهلين بذلك البواعث الحقيقية لهذا السلوك التعبدي النابع من فطرة الإنسان وحاجته إلى تلبية حاجته الروحية، وشتَّان بين السلوك التعبدي للإنسان باعتباره انعكاساً للبيئة الاجتماعية التي يعيشها، وبين اعتبار هذا السلوك استجابة للدوافع الروحية فيه والنابعة من إيمانه وقناعته الوجدانية"(٦٤) .

إن الفكرة السابقة تؤكد على أن النظرة المادية لقضايا الدين ، وإغفال النوازع والدوافع الروحية والإيمانية، وحصر كل نتائج دراسات الدين وقضاياه في الجانب الظاهر المحسوس؛ هو نتيجة متوقَّعة لدراسة الدين من بوابة العلوم الإنسانية، وعدم الاعتراف بحقل معرفي غير العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وهذا يؤكد أنه لا يمكن أن ندرس الظواهر الدينية في شتى الثقافات بما فيها البيئة الإسلامية بمناهج العلوم الاجتماعية، وليس كل ما يقال عن القضايا الدينية يمكن دراستها عن طريق علوم الإنسان، حتى لو كانت تلك المناهج مناهج عالمية وصلت إلى درجة التسليم بها، حيث إن الدين ليس علماً طبيعياً حتى نجري عليه مقولات العلم الطبيعي، ولا هو علم إنساني كذلك حتى يمكن إخضاعه لعلوم الإنسان، واعتباره أحدهما سيؤدي إلى انزلاقات لا نهائية تؤدي في نهاية المطاف إلى تفريغ الدين من محتوياته الأصلية.

وإذا كانت منهجية البحث في العلوم في الفكر الغربي سواء كانت العلوم التجريبية أو العلوم الإنسانية تُقصي الجانب الماورائي لصالح الجانب الحسي المادي – بما أن الجانب الماورائي لا يدخل في مسمى العلم – فإن كثيراً من الأبحاث السيسيولوجية على سبيل المثال لا يمكن أن تتخلى عن بعض المنطلقات الأساسية والتي هي مقدمات لكثير من النتائج المشهورة، وهي في الحقيقة نوع من الميتافيزيقا كمجتمعات الطوطم(٦٥)، وبداية نشأة الأديان واللغات وعقدة أوديب(٦٦) والحديث عن المجتمعات البدائية

(٦٤) منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، مُحَمَّد أمزيان ص٢٥٩ .

(٦٥)يطلق اسم الطوطم عند الأقوام الأمريكية والاسترالية القديمة على حيوان أو نبات يعتقدون أنهم منحدرون منه، وهذا كله يتوجب على الأفراد أن يحيطوا طوطمهم بهالة من التقديس، فإذا كان حيواناً امتنعوا عن إهراق دمه، وإذا كان نباتاً تباركوا به .والطوطمية هي النظام الاجتماعي المبني على عقيدة الطوطم القائلة إن الطوطمية هي الصورة الأولى للحياة الدينية والأخلاقية والاجتماعية، لما تشمل عليها من

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

وغيرها، كل هذا يعتبر من الجانب الماورائي المتداول في مباحث علم الاجتماع، والتي لا يمكن لأحد أن يجزم بحصوله على الوجه الذي ترتبت عليه كثير من النتائج، ويمكن اعتبار هذه المباحث (ميتافيزيقا علم الاجتماع) إلا أن هذه المباحث يتم تداولها في حقول علم الاجتماع وعلم النفس دون أي مساءلة، بل يمكن أن تُصنف من المبادئ التي لا تقبل الأسئلة، وفي المقابل تُنكِر هذه العلوم كثيراً من القضايا الدينية ودوافعها بناء على أنها نوع من الميتافيزيقا تقع خارج إطار الحس والمادة !.

جانب آخر من الخلل المنهجي في دراسة الدين في الفكر الغربي؛ أن تلك المناهج تنطلق من رؤيتها في دراسة الدين وقضاياه من مفهوم الدين في الغرب وهو الدين المسيحي –على اعتبار أن الدين المسيحي أكمل الديانات كما يقول هيجل–[٦٧]، وهذا التصور مختلف تماماً عن تصور الدين في الفكر الإسلامي، حيث الخلل في مفهوم الألوهية والوحي ظاهر بشكل كبير في الدين المسيحي، هذا إضافة إلى ضعف الجانب المعرفي الإلهي في الدين المسيحي مقارنة بالدين الإسلامي، فليس هناك كثير معارف مصدرها الكتاب المقدس متعلقة بالكون والإنسان أو المصير الأخروي، مقارنة بكمية المعارف الغيبية التي يحتوي عليها القرآن، وجانب آخر فيما يتعلق بالدين المسيحي؛ وهو جانب الأمر والنهي أو الأوامر الإلهية والتي يترتب عليها الثواب والعقاب والترغيب والترهيب، حيث تظهر هذه بشكل كبير في القرآن، مقارنة بضمورها تقريباً في النصوص المقدسة المسيحية، مما يضعف معها الجانب القيمي أو الدوافع في ممارسة الأعمال الدينية، ولذلك يصدق على الدين المسيحي –كما هو عليه الآن– أنه عقيدة بلا شريعة، وهذا المفهوم للدين في الفكر الغربي انعكس على مفهومه في دراسة الأديان الأخرى، وإذا أضفنا إلى ذلك المنزع المادي المتأثر بالعلمنة كمنظومة عامة للتفكير في الفكر الغربي الحديث؛ فإن هذا العقل لا يتصور أن تصدر الأعمال الدينية عن دوافع أخروية، وإنما لا يرى فيها إلى المنزع المادي، وهذا انعكس بدوره على عموم الدراسات العربية

تحريم بعض الأشياء وإباحة بعضها الآخر . انظر المعجم الفلسفي، جميل صليبا ٢٥/٢

وقد خصص فرويد كتاباً خاصاً عن مجتمعات الطوطم باسم "الطوطموالتابو" ترجمة: بو علي ياسين، نشر دارالحوار، اللاذقية، ١٩٨٣م .

(٦٦)عقدة أوديب هي مجموعة من التصورات والأوهام والوجدانات الشعورية أو غير الشعورية المتصلة برغبة الطفل في الاستحواذ على أحد والديه، فإذا كان الوالد أو الطفل من جنسين مختلفين (كرغبة الولد في الاستحواذ على أمه، أو رغبة البنت في الاستحواذ على والدها) سميت هذه الرغبة بعقدة أوديب الإيجابية، وإذا كانا من جنس واحد سميت بعقدة أوديب السلبية . انظر المعجم الفلسفي، جميل صليبا ٨٣/٢ .

(٦٧)انظر الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ص٢٨٥.

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

الدارسة للدين وقضاياه.

الخاتمة

وبعد هذه الجولة السريعة في البحث ممكن أن نسجل أهم النتائج التي انتهى إليها البحث وهي كالتالي:

– الدين كما أنزله الله تعالى هو الدين بمعناه العام وهو الإسلام ، وهو منظومة متكاملة للفرد وللمجتمع تشمل الجانب المعرفي والتشريعي إضافة إلى الجانب القيمي ، وهنا يظهر الاختلاف بين المفهوم الإسلامي للدين وبين غيره من المفاهيم

– يتم تداول مفهوم الدين في الفكر الغربي في علم الاجتماع، وفي علم النفس ومثل ذلك في ميدان الأنثروبولوجيا وغيرها، لذلك فمفهوم الدين عند الفيلسوف يختلف عن مفهومه عند عالم النفس أو عالم الاجتماع وهكذا، كل هذه الحقول المعرفية وغيرها تنطلق من زوايا خاصة بناء على رؤيتها الأبستمولوجية. ويجمع هذا الشتات أن كل الأديان تؤمن بمبدأ الألوهية سواء كان إلهاً واحداً أو أكثر ، ولكن كل هذه المفاهيم تتقاصر عن الشمولية عن مفهوم الدين في السياقات الإسلامية.

– تعني فلسفة الدين في الفكر الغربي دراسة الدين كظاهرة، وهي تتعامل مع هذه الظاهرة بجانبها الحسي المادي دون البحث عن المعتقدات، لذلك ففلسفة الدين في الفكر الغربي غير معنية بالدفاع عن الدين أو الحديث عن الجانب الإلهي فيه، وإنما معنية في البحث في تحليل الدين بصفته ظاهرة وتأثيره في الأفراد والمجتمعات، وتنطلق غالباً من حقول علم الاجتماع وعلم النفس.

– يتم دراسة الدين في الفكر الغربي ضمن حقول العلوم الإنسانية، مثله مثل علم النفس أو الانثروبولوجيا، لأن الدين كواقعة اجتماعية إنسانية هو داخل ضمن علوم الإنسان، ولذلك لا توجد في هذه الدراسات أي إشارة إلى موضوع الألوهية أو الأمر والنهي أو التشريع، وكل هذه المباحث غائبة تماماً عن مباحث الدين في الفكر الغربي، وما ذلك إلا لأنها خارج العلوم الإنسانية .

– إن دراسة الدين ضمن حقول العلوم الإنسانية أمر يكتنفه الكثير من الصعوبات المنهجية ، فليس كل ما يقال عن القضايا الدينية يمكن دراسته عن طريق علوم الإنسان، حيث إن الدين ليس علماً طبيعياً حتى نجري عليه مقولات العلم

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

الطبيعي، ولا هو علم إنساني كذلك حتى يمكن إخضاعه لعلوم الإنسان، واعتباره أحدهما سيؤدي إلى انزلاقات لا نهائية تؤدي في نهاية المطاف إلى تفريغ الدين من محتوياته الأصلية.

– إذا كانت الدراسة الغربية للدين تقصي الجانب الماورائي من حساباتها إذا الموضوع يتعلق بالدين؛ فإنها من حيث لا تشعر تعتمد على أصول ما ورائية وتجعلها من المسلمات وتبني عليها نتائج مقطوعة ، وهي في الحقيقة نوع من الميتافيزيقا كمجتمعات الطوطم، وبداية نشأة الأديان واللغات وعقدة أوديب، والحديث عن المجتمعات البدائية وغيرها، كل هذا يعتبر من الجانب الماورائي المتداول في مباحث علم الاجتماع، وفي المقابل تُنكِر هذه العلوم كثيراً من القضايا الدينية ودوافعها بناء على أنها نوع من الميتافيزيقا تقع خارج إطار الحس والمادة وهذا خلل منهجي لا يمكن تمريره.

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

أنسنة مناهج دراسة الدين في الفكر الغربي دراسة نقدية إسلامية

Abstract:

Humanizing research methods in the study of religion in Western Thought: a Critical Islamic Study

Prof. Khalid bin Abdul-Aziz bin Muhammad al-Saif

Qassim University, College of Shariʿah& Islamic Studies, Department of Islamic Doctrine & Contemporary Ideologies

Western studies are interested in the study of religion and related issues. However, the methodology adopted in these various studies is influenced by the Western materialistic view. Consequently, several sciences such as sociology and psychology interfere in the Western study of religion. The present research attempts to investigate the main premises behind the western study of religion and how it tends to study religion like any other human science, without taking into account the divine aspect of religion. In addition, the current research discusses the validity, reliability and shortcomings of this methodology

Keywords: humanizing religion, philosophy of religion, religion

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

المراجع والمصادر:

- بركات: زياد، الاتجاه نحو الالتزام الديني وعلاقته بالتكيف النفسي والاجتماعي لدى طلبة جامعة القدس المفتوحة، ، ٢٠٠٦م.
- فيبر: ماكس الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة : مُحَمَّد علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت.
- مانهايم: كارل ، الأيديولوجيا واليوتوبيا مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، ترجمة : مُحَمَّد رجا الديريني، شركة المكتبات الكويتية، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م .
- كرم: يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة.
- فروم: إيريش ،التحليل النفسي والدين، ترجمة : محمود منقذ الهاشمي، دار الحوار، اللاذقية، الطبعة الثانية، ٢٠١٥ م .
- الصنيع: صالح، التدين والصحة النفسية، مطبوعات جامعة الإمام، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م .
- طيبي: غماري، التدين والصحة النفسية في الجزائر تبرير العلاقة الإيجابية بين الإسلام وعلم النفس، مجلة التشريع الإسلامي والأخلاق، ربيع ٢٠١٤م.
- فيصل : قريش ، التدين وعلاقته بالكفاءة الذاتية لدى مرضى الاضطرابات القلبية، اطروحة ماجستير، جامعة الحاج لخضر–بانتة، الجزائر، ٢٠١١م .
- الجرجاني: علي بن مُحَمَّد ، التعريفات، مكتبة لبنان، ١٩٨٥م.
- الخشاب: أحمد ، التفكير الاجتماعي؛ دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية بيروت دار النهضة العربية ١٩٨١م.
- تمهيد في علم الاجتماع، بوتومور، ترجمة : مُحَمَّد الجواهري وآخرون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨م.
- السعدي: عبد الرحمن ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مكتبة العبيكان ، الرياض، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ.

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

- دراز: مُحَمَّد عبد الله، الدين، دار القلم، الكويت
- غوشيه: مارسيل ، الدين في الديمقراطية مسار العلمنة، ترجمة : شفيق محسن، المنظمة العربية للترجمة، بيروت الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- كانت: إيمانويل ، الدين في حدود مجرد العقل، ترجمة : فتحي المسكيني، جداول، للنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م .
- الترمذي: مُحَمَّد بن عيسى ،سنن الترمذي، تحقيق :أحمد مُحَمَّد شاكروآخرون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م
- الترمذي: مُحَمَّد بن عيسى ، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت .
- حمداوي : جميل ، سوسيولوجيا الأديان، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٧م .
- البخاري: مُحَمَّد بن إسماعيل ، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ .
- الخريجي: عبد الله ا، علم الاجتماع الديني، رامتان للتوزيع، جدة، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م .
- امين: أحمد، محمود: زكي نجيب، قصة الفلسفة الحديثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٣٦م.
- سكوت: جون ، علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، ترجمة : مُحَمَّد عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م .
- غدنز : انتوني ، علم الاجتماع، ترجمة: فايز الصُيّاع، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الرابعة.
- أحمد: باور ، فلسفة الدين دراسة حول المفهوم، دار الشروق، عَمان، الطبعة الأولى،٢٠١٧م .
- كهايم: دور، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة: محمود قاسم والسيد مُحَمَّد البدوي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٥)، ص ص ٣٢٦١ – ٣٢٩٧ (رمضان ١٤٤١هـ / مايو ٢٠٢٠م)

- التهانوي: مُحَمَّد بن علي ، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م .
- هوايتهد: ألفرد نورث ، كيف يتكون الدين، ترجمة: رضوان السيد، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م .
- ابن منظور: مُحَمَّد بن مكرم، لسان العرب، ، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة،١٤١٤هـ
- هيجل : مدخل إلى فلسفة الدين "ضمن الأعمال الكاملة"، ، ترجمة: مجاهر عبد المنعم مجاهد، دار الكلمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- زيهر :جولد مذاهب التفسير الإسلامي، ، ترجمة: عبد الحليم النجار، مكتبة الجانجي، مصر، ١٩٥٥م.
- فرويد:سيغموند، مستقبل وهم، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.
- صليبا: جميل، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٩٤م.
- السخاوي: مُحَمَّد ، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقيق: مُحَمَّد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م
- أمزيان: مُحَمَّد، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٨م .
- بدوي، عبد الرحمن موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
- مارشال: جوردون، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة : مُحَمَّد الجوهري وآخرون، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م .
- لالاند: أندرية، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت وباريس، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.